اسم المصدر: الوطن السعودية

التاريـــخ: 15-10-2009 رقم العـدد: 3303 رقم الصفحة: 12 مسلسـل: 89 رقم القصاصة: 1

"الأممية الإسلامية" مجدَّدا

لا يعني هذا إلغاء العلاقات السوية بين الدول الإسلامية المستقلة. وهي علاقات ينبغي أن تقوم، لا على بسط الهيمنة والوصاية على الآخرين، بل على المصالح المشتركة التي يتساوى فيها الجميع

حمزة قبلان المزيني

أكاديمي وكاتب سعودي

hmozainy@alwatan.com.sa

اسم المصدر: الوطن السعودية

التاريـــخ: 15-10-2009 رقم العـدد: 3303 رقم الصفحة: 12 مسلسـل: 89 رقم القصاصة: 2

أشرت في مقالات سابقة إلى رسوخ مفهوم "الأممية الإسلامية" في الخطاب السائد. وهو يعني النظر إلى المسلمين على أنهم كيان سياسي واحد، وأنهم كانوا كذلك طوال تاريخهم، وأن الاستعمار الأوروبي هو الذي مزق هذا الكيان إلى أقطار متعددة.

ومن التجليات الأخيرة لرسوخ هذا المفهوم تكرار مفردة "الأمة" في الحديث عن جامعة الملك عبد الله للعلوم والتقنية. ومن ذلك قول أحدهم "إن جامعة الملك عبدالله يرجى لها الخير وإنه إنما افتتحت من أجل مصلحة هذه الأمة ومن أجل إعادة هذه الأمة على ما كانت عليه سابقا من ريادتها للعلوم قاطبة. والهدف الذي قامت عليه الجامعة وأنشئت من أجله هدف نبيل وكل مسلم يسعى إليه ويرغب في أن يكون سببا من أسباب علو ورفع درجة هذه الأمة ومن أسباب علو هذه الأمة على غيرها من الأمم. لذلك فإن الملك عبدالله يشكر على هذه الخطوة المباركة التي لعلها إن شاء الله تكون من أسباب الخير ومن أسباب رفعة درجة الأمة".

وآخر مثال لذلك ورود هذه المفردة أربع عشرة مرة في الخطبة التي ألقاها الشيخ عبد الرحمن السديس في الحرم المكي الشريف (٢٠/ ١٠/ ١٤٣٠هـ). ويبدو أن المقصود بها "الأمة الإسلامية" لمجيئها في معرض الحديث عن العقيدة الإسلامية والماضي العلمي الإسلامي المجيد ووجوب التقيد بالثوابت الإسلامية في التعليم.

ومن ذلك قوله: "شاهد ذلك الأمثل، ونموذجه الأشمل، ذلك الصرح العلمي الشامخ، والمعقل المعرفي العملاق، المتمثل في جامعة الملك عبدالله بن عبدالعزيز ـ وفقه الله ـ للعلوم والتقنية بما تمثله من مصدر إشعاع حضاري، ومنارة سامقة في سماء العلم والمعرفة، وإن كل محب للعلوم والمعارف ليبارك هذه النقلة النوعية الكبرى، والوثبة الحضارية العظمى، بما يحقق الأصالة والمعاصرة، ويعيد للأمة ـ بإذن الله ـ سالف مجدها وحضارتها. إنها جامعة رائدة في أهدافها، سامية في مقاصدها، نبيلة في غاياتها، ولعل الله يُري رائدها ما تقرُّ به عينه، وتبتهج به نفسه، بل ونفوس الأمة جميعاً، في تحقيق رسالتها السامية، وآثارها المباركة".

و "يحذرون من الخوض فيما لم يتبين لهم أمره، والاسترسال وراء الشائعات المغرضة، التي يريد أعداء الأمة وخصوم المجتمع أن تتقاذف سفينتها أمواج الفتن، فلا أعظم من تأليف قلوب الرعاة والرعية، وتوارد أهل الحكم وأهل العلم على تحقيق المصالح للأمة ودرء المفاسد والفتن عن المجتمع".

و "لتحقيق مستقبل أفضل بإذن الله لدفع عجلة تقدم المجتمع وازدهاره ونهضة الأمة ورقيها".

ولا شك أن لجامعة الملك عبد الله للعلوم والتقنية بُعدا عالميا يتمثل في تنوع جنسيات طلابها وأعضاء التدريس فيها، وبعضهم مسلمون من جنسيات مختلفة.

لكنها، مع ذلك كله، مؤسسة "وطنية سعودية" تخص كيانا سياسيا محدَّدا هو "المملكة العربية السعودية"، وسيمثِّل التقدم العلمي الذي ستحققه إنجازا لكيان سياسي معين هو "المملكة العربية السعودية"، وأنه لا شأن لـ"الدول الإسلامية" الأخرى بهذه المؤسسة، ولا شأن للشعوب الإسلامية بها كذلك.

ويكشف هذا الاستخدام الكثيف لمفردة "الأمة" إحدى المشكلات المعيقة سياسيا واجتماعيا للمسلمين في العقود القليلة الماضية. ذلك أنهم يعيشون في ظل مفهوم "الأممية الإسلامية" الغامض، ويغفلون عن واجبهم الأول وهو العناية بكياناتهم السياسية المعيَّنة وتحقيق التقدم لها. ونتيجة لرسوخ هذا المفهوم في الثقافة الإسلامية السائدة نرى أن كل دولة من الدول الإسلامية تزعم لنفسها أنها هي وحدها التي تمثل الإسلام الصحيح، وتحاول من ثم التفوق على الدول الإسلامية الأخرى بهذا الادعاء.

ويبرهن هذا المفهوم على جهل المسلمين بتاريخهم ـ كما حدث، لا كما ترسمه الأدلجة "الصحوية" ـ ذلك أن تاريخ المسلمين الحقيقي يشهد بأن الإنجازات العلمية الكبرى في الرياضيات والفلك والطب وغيرها من العلوم لم تحدث عند المسلمين إلا في الكيانات الصغرى بعد أن تفككت الإمبراطوريات الإسلامية الكبرى ـ باستثناء الفترة الأولى من تاريخ الدولة العباسية.

ومن الأمثلة المعاصرة الدالّة ما حققته مصر من تقدم علمي وحضاري في عهد محمد علي في الفترة التي وجَّه اهتمامه فيها إلى داخل مصر. لكنه أصيب بداء المسلمين الدائم المتمثل في النظر إلى نفسه على أنه هو الجدير بقيادة "الأمة"، فبدأ في التمدد خارج مصر، وهو ما جعل الدول الكبرى تنقض عليه وتكبح جماحه وتعيد مصر إلى حال التأخر العلمي والحضاري السائدة في محيطها.

وهذا ما حدث لمصر الناصرية ـ مع اختلاف الدافع ـ حين رأت نفسها أنها الجديرة بقيادة "الأمة العربية"، وذلك ما أثار نقمة الدول الكبرى، بل نقمة العرب الآخرين الذين لم يرضوا أن يكونوا أتباعا لعاصمة عربية أخرى.

وهذا ما يحدث الآن لإيران التي تحاول التصدي لمهمة رسالية كبرى تتمثل في الدعوة إلى "الوحدة الإسلامية" التي تعني بسط نفوذها على الآخرين. لكن هذا التطلع سوف يشغلها، كما شغل غيرها، عن إصلاح الداخل، وسيجر عليها نقمة الآخرين، وسينشأ عن ذلك كله منعها من تحقيق أهدافها الداخلية والخارجية على السواء.

كما يتعامى مفهوم "الأممية" عن الأمثلة الواضحة التي تشهد بأن الكيانات الصغرى، في العالم كله، هي التي حققت التقدم لشعوبها. ومن الأمثلة القريبة منا تركيا التي تتقدم الآن في مختلف المجالات بعد أن أزاحت عن كاهلها تبعات "الإمبراطورية العثمانية" وحصرت اهتمامها في داخل حدودها الدولية وبدأت تتحدث عن "الأمة التركية" بدلا عن ذلك. وكذلك ماليزيا التي لم تغرها الأفكار "الصحوية" ببهرجاتها ووجهت اهتمامها للداخل.

وهناك دول صغيرة كثيرة استطاعت تحقيق نجاحات باهرة في مجالات علمية وحضارية كثيرة. ومنها كوريا الجنوبية واليابان وتايوان وسنغافورة، وغيرها.

إن المسلمين اليوم بحاجة ماسة إلى تجاوز أوهام الأفكار الكبرى التي كانت سببا في تأخرهم وتمزق مجتمعاتهم، وإلى أن يوثقوا الاعتراف بالحدود السياسية الحالية التي تحد دولهم، وأن تهتم كل دولة بأولوياتها داخل حدودها.

ولا يعني هذا إلغاء العلاقات السوية بين الدول الإسلامية المستقلة. وهي علاقات ينبغي أن تقوم، لا على بسط الهيمنة والوصاية على الآخرين، بل على المصالح المشتركة التي يتساوى فيها الجميع ولا يشعر أحد منهم بميزة خاصة تسوغ له الادعاء، أو التوهم بأن له مهمة رسالية على حساب الآخرين.